

السعادة والرغبة



أندري كونت سبونفيل
ترجمة: حمادي أنوار

مؤمنهم بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

السعادة والرغبة⁽¹⁾

أندري كونت سبونفيل

ترجمة: حمادي أنوار

⁽¹⁾- Comte- Sponville, André (2010): «Le bonheur de désirer» in: «Le Goût de Vivre», 1^{re} édition, Editions Albin Michel, Le Livre de Poche, Paris. p-p: 192- 196

في ماذا نرغب؟ في اللذة، في الفرح، وفي السعادة. كل هذه العناصر الثلاثة تسيّر مجتمعة، أو بالأحرى لا معنى لأيّ عنصر منها دون العنصرين الآخرين. ما معنى أن تكون سعيداً؟ إنه يعني أن تستمتع وتبتهج، وأن يدوم ذلك مدة طويلة... لكن ما الذي يجعل من ذلك صعباً للغاية؟ إن هذا ما ينبغي فهمه، لكي لا يكون مستحيلاً تماماً؟

ما الرغبة؟ يمكننا أن نفكر فيها بطريقتين مختلفتين: إما باعتبارها نقصاً، أو بوصفها قوّة. ومن هنا نكون بصدد فلسفتين متعارضتين، لا نكفّ عن التّأرجح بينهما؛ لأنهما معاً فلسفتان حقيقتان. إن التعارض هو خاصة الإنسان.

إذن، هناك النقص أولاً، وهذه هي الرغبة حسب أفلاطون، وهي الرغبة من منظور سارتر أيضاً. إنها الرغبة حسب أيّ شخص. إنها الرغبة الجشعة، الشرهة والنهمة. إنها ما ينقصنا. كتب سارتر في كتابه «الوجود والعدم» أن «الإنسان هو أساساً رغبة في الوجود» وأن «الرغبة نقص»، وهذا ما يجعلنا نقف أمام العدم: الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتحدد بوصفه «نقصاً في الوجود». إنه الكائن الوحيد الفاقد لذاته ولكل شيء. وهذا المعنى هو الرغبة نفسها، وهذا هو الإنسان ذاته. إننا لا نرغب، كما قال أفلاطون، «إلا في شيء غير آني وغير حاضر». وبمعنى أدق «في ما لا نملك، وفي ما لسنا إياه، إن هذه الأشياء التي تنقصنا هي موضوعات كل من الرغبة والحب». إنها تجربة الجميع؛ فكيف لا نرغب في ما ينقصنا؟ وكيف نرغب في ما لا ينقصنا؟ هنا تكمن تعاسة كل شخص، أو على الأقل هذا ما يُبعده عن السعادة، ضمن الحركة أو المسار الذي يتبعه.

ما معنى أن تكون سعيداً؟ يعني ذلك أن تمتلك ما ترغب فيه. لكن إذا كانت الرغبة نقصاً، ولا نرغب، حسب هذا التعريف، إلا في ما لا نملك؛ فكيف يمكنني أن أكون سعيداً؟ كيف يمكنني أن أملك ما أُرغب فيه، ما دمت لا أُرغب فيه إلا بقدر ما ينقصني، أكثر من رغبتي فيه لكوني لا أملكه؟

يخاطب العاطل عن العمل نفسه، قائلاً: «ما معنى أنني سأكون سعيداً لو حصلت على عمل؟» ويقول ذاك الذي يملك عملاً: «ما معنى أنني سأكون سعيداً لو فُزت في اللوطو Loto، ولو كان بإمكانني ألا أعمل أبداً؟» إن انعدام الشغل تعاسة. لكن عندما يتوفر الشغل، من لا يرغب في الراحة، في العطلة وفي الحرية؟ كل شخص يرغب في ما لا يملك، وهذا ما يسمى الرغبة. لذلك، فإننا نرغب في السعادة، ولهذا فهي تنفلت منا. وقد تحدّث «وودي ألين» Woody Allen عن الأهم في ذلك، من خلال جملة واحدة تقول: «ما معنى أن أصبح سعيداً إذا كنت أصلاً كذلك!» بما أنه يتمنى أن يصير سعيداً، فكيف له أن يصبح كذلك؟

إذا كانت الرغبة نقصاً، ومن حيث هي كذلك، فإن السعادة بالضرورة مفقودة من أصلها. بالتأكيد ليس لأن أيّا من رغباتنا لم تُشبع أبداً؛ فالحياة ليست صعبة إلى هذا الحد؛ لأن الرغبة تنتهي بمجرد إشباعها:

فالجوع يزيله الشبع، كما تزيل النشوة الجنسية الرغبة في الجنس. «إن اللذة، كما كتب سارتر، هي موت وانطفاء الرغبة.» أهي فلسفة ذكورية؟ قد تكون كذلك. وعلى العموم، فالحل لا يكمن في الشره، سواء كان غذائياً أو جنسياً.

إذن، فنحن نرغب، أحياناً، في ما لا نملك، ونعاني من هذا النقص. ومن ثم، فإننا نتوفر أحياناً أخرى، على ما لم نعد نرغب فيه، ونشعر بالملل. من هنا ننتقل من أفلاطون إلى شوبنهاور، ومن بروسست إلى بروسست أيضاً. فالبرتين Albertine حاضرة، والبرتين مختفية... وحينما لا تكون هنا، يعاني بشدة: إنه على استعداد لفعل أي شيء لكي تعود. وعندما تكون هنا، يملُّ منها: إنه على استعداد لفعل أي شيء لكي ترحل، أو لأن يستبدلها بأخرى... وهذا ما يحصل في جميع الميادين. من هذا الذي، لو خُير، لا يرغب في المال، أو في المنزل، أو في المرأة أو الرجل، الذي ينقصه؟ هل يشكل الحب استثناء؟ ربما هو كذلك عندما يكون سعيداً، أو مادام كذلك. ولكن من ذا الذي لا يعتقد أن النقص هو القاعدة؟

كتب لوكريس، يقول: «طالما بقي الشيء موضوع رغبتنا بعيداً، فإنه يتهياً لنا على أنه أسمى من كل شيء؛ ليكون لزاماً علينا أن نرغب في شيء آخر، فالتعطش نفسه للحياة هو ما يجعلنا نحافظ على دوام واستمرارية لذة الانتظار والترقب.» وقال شوبنهاور: «هكذا فكل حياتنا تتذبذب مثل بندول الساعة، من اليمين إلى الشمال، من الألم إلى الملل.» إنها معاناة من عدم امتلاك ما نرغب فيه، وملُّ من امتلاك ما لم نعد نرغب فيه أبداً... فكما أن الحب سهل، فكذلك الحياة الزوجية صعبة.

إن لهذه التحليلات، التي لا مناص لي من الابتداء بها، نصيبها من الحقيقة. فلو لم يكن إلا هذا، لكانت كلُّ سعادة ستصير مستحيلة، وسيكون الانتحار، من دون شك، هو الحلّ الأفضل. فإذا كنا نعيش، وإذا كنا نتمسك بالحياة، فلا بد أن نحوز فيها على شيء آخر. فما هو هذا الشيء؟ إنه اللذة، الفرح والسعادة أحياناً. لكن متى نتحصل لدينا لذة؟ ومتى يكون هناك فرح؟ ومتى نُحصل السعادة؟ يكون ذلك عندما نرغب في ما نملك، وفي ما نفعل، في ما هو موجود، وفي ما لا ينقصنا... توجد هناك لذة وفرح وسعادة في كل مرة يكون فيها أفلاطون على خطأ، وإذا لم يكن هذا كافياً لدحض الأفلاطونية (ما السبب الذي قد يؤدي إلى اللذة؟) إلا أن ذلك سيكون دائماً هو السبب في ألا يكون المرء أفلاطونياً.

ماذا يوجد بين معاناة الجوع وملل الامتلاء؟ توجد لذة الأكل. ماذا يوجد بين الحرمان، وبين فيلم «Le post coïtum triste»؟ توجد لذة النشوة الجنسية، توجد لذة الرغبة التي تدوم أكثر، ثم اللذة بين المحبين، لذة العطاء والأخذ، لذة الهبة والكرم، لذة الغموض والفرح، لذة الفُحش والحب... كل الأزواج يعرفون هذا عندما يكونون سعداء. إن ممارسة الحب، لمَّا نحب بعضنا البعض، لا تعني لا الرغبة في النشوة الجنسية، ولا أي تَوَحُّد أو فناء la fusion يكون مستحيلاً، وقد يشكل موضوع نقص لنا، بل يعني أن نرغب في ذاك

أو تلك ممن لا ينقصنا، من هو موجود هنا، من يُقدّم ذاته عطاء واستسلامًا. لذلك، فالأمر أكثر روعة ولطافة وقوة. ولا يتعلق أبدًا بالفراغ الذي يفتك بالآخر، بل بالامتلاء المُشبع والمُشبع لوجوده، لحضوره، لمتعته ولحبّه... إلخ.

في ماذا نرغب؟ إننا نرغب في أن يوجد الآخر، وأن يوجد هنا، وأن يهبنا نفسه، أو نحن من يأخذها... إن هذا ما يقع بالضبط: كيف أننا لا نصل لمرحلة الإشباع والاكتفاء؟ ماذا يحصل بعد العلاقة الجنسية؟ يكون هناك شكر وامتنان ولطف، وفرح بأنك تحب وتُحب.

لم يعد الأمر متعلقًا بالرغبة حسب أفلاطون أو سارتر، بل بالرغبة حسب أبيقور، سبينوزا أو نيتشه. بالوجود وليس العدم، بالقوة وليس النقص، بالفعل وليس الانفعال، بالحب الذي نمارسه، وليس بذاك الذي نحلم به. إن المسألة تتعلق بحكمة الجسد، وبحكمة الرغبة: قوة الاستمتاع، والاستمتاع في القوة.

إن الرغبة في الطعام الذي لا نملك معناه الشعور بالجوع، وهو نوع من المعاناة. أما الرغبة في الطعام الذي نملك، والذي لا ينقصنا، فمعناه الأكل بشهية طيبة: إنه فعل ولذة.

والرغبة في المرأة أو الرجل الذي ينقصنا هي ضرب من الحرمان أو الأسى. أما الرغبة في ذاك أو تلك ممن لا ينقصنا (أو بالأحرى من يوجد هنا: فنحن لا نملكه إلا بقدر ما يقدم لنا هو ذاته)، فهو عبارة عن فرح وسعادة.

يجب على المرء، إما أن يرغب في ما ينقصه، فيعاني. أو يرغب في ما هو موجود، فيستمتع وبيتهج. فهذه المعاناة هي حبّ، وذلك الفرح هو حبّ أيضًا. لكنهما نوعان مختلفان: هناك الحب حسب أفلاطون (الانفعال والنقص: الإيروس *eros*). وهناك الحب حسب سبينوزا (الفعل والفرح: الفيليا *philia*). سوف لن نتسرع كثيرًا في الاختيار بين هذين النوعين من الحب؛ فكلاهما يمكن أن يُعاش، بل يمكن أن يعاشا معًا في وقت واحد. فكلاهما ينير حياتنا؛ أحدهما من جهة العدم الذي يشدنا إليه، والآخر من جهة الواقع الذي نتمسك به. ولهذا، لا وجود لحب سعيد، ما دمنا لا نحب إلا ما ينقصنا، ولا وجود لسعادة دون حب، عندما نبتهج ونستمتع بما هو موجود.

ما ينبغي فهمه من ذلك كله، هو أن الواقعي لا يكون أبدًا موضوع نقص. لذلك، فالسعادة في فعل الرغبة، التي هي حبّ، تكون أفضل من الرغبة في السعادة، التي ليست إلا ترحبًا.

MominounWithoutBorders



Mominoun



@ Mominoun_sm



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com